الباب السادس

القدس في العهد العثماني

الباب السادس

القدس في العهد العثماني

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية، كانت عند بداية القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي تعيش في كردستان، وتزاول حرفة الرعي، ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيز خان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر في عام 617 هـ وفق 1220 م مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر في مدينة أخلاط، وفي عام 656 هـ / 1258 م ولد لأرطغرل أبنه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية، وهي السنة التي غزا فيها هولاكو المغولي بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

أصبح عثمان المؤسس الأول للدولة العثمانية، وكان يتمتع بصفات كبيرة كالشجاعة والصبر والحكمة والإخلاص والعدل والجاذبية الإيمانية والوفاء والتجرد لله في فتوحاته، وقد سار على الدستور الإسلامي الجهادي المنيع، ترك عثمان بعد جهاد متواصل دولة قوية لها منفذ على بحر مرمرة واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين في ذلك الزمان وهما أزنبق وبورصة. (1)

"جاء السلطان أورخان بعد أبيه عثمان واعتمد سياسة التوسع باتجاهين: أحدهما على حساب بيزنطة والآخر على حساب سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، فتمكن في عام 1326 م من فتح مدينة بورصة وجعلها عاصمة له.

يعد السلطان محمد الثاني (الفاتح) أعظم السلاطين العثمانيين، وواضع أسس الإمبراطورية العثمانية إذ تمكن سنة 1453 م من فتح القسطنطينية وجعلها عاصمة له، وأسماها إسلام بول (اسطنبول) وقام بالإصلاحات اللازمة في البلاد.

---

(1) د علي محمد الصلابي مرجع سابق، ص 51 .

بعد أن احتل السلطان سليم الشام سار إلى فلسطين، والتقى بكتائب أخرى من جيش طومان باي قرب اللجون، فاحترب الفريقان فكان النصر هنا أيضا حليف الأتراك، فلم يبق أمام السلطان سليم ما يعيقه عن احتلال القدس، فاحتلها دون قتال، وقد حدد يوم دخولهم بأنه اليوم الثامن والعشرون كانون الأول 1516م الرابع من ذي الحجة سنة 922هـ وبعد هذا التاريخ بيومين توجه السلطان سليم صوب القدس الشريف وزار الأماكن المقدسة. أولم له أهل القدس ولجنده وليمة كبيرة في هنابي خشبية وأقاموا له الاحتفال في فناء الصخرة المشرفة، وقدم الهدايا لأعيان القدس جميعا وأعفاهم من الضرائب الباهظة وثبتهم في وظائفهم، كما أنه قرر تعمير السور الذي يحيط بالمدينة، وذلك لصد هجمات الجيوش المعادية عن القدس التي اعتادت أن تمر بفلسطين من أي اتجاه عبر بيت المقدس.

دخل السلطان العثماني سليم القدس فزار قبور الأنبياء، ورأى الأماكن المقدسة والآثار القديمة، وأتاه وهو في القدس سفير دولة أسبانيا يحمل رجاء ملكها، فقبل رجائه، وأتاح للنصارى الحج إلى بيت المقدس على شريطة أن يؤدوا الرسم الذي كانوا يؤدونه زمن المماليك.اعتزم عمارة السور، بيد أنه رجع إلى عاصمة ملكه القسطنطينية، وتوفاه الله قبل أن يتمكن من تعميره.[1]

القدس في عهد السلطان سليمان القانوني1520م — 1566م

انتقل السلطان سليم إلى جوار ربه عام 1520 هـ، فتولى الحكم خلفا له ولده السلطان سليمان القانوني، وقد أولى (رحمه الله) القدس عناية فائقة ووجه الأنظار إليها، وقام بالعديد من الإصلاحات والإنجازات والإعمار الكثير فيها، فكان من أبرز الأعمال التي أنجزها ما يلي:

(1) العارف، المصدر نفسه، ص 103

أولا: جدد عمارة السور حيث دامت عمارته خمس سنوات من عام(943هـ - 947هـ / 1536 م – 1540 م). وهناك أربع بلاطات مثبتة على أبواب السور مكتوب عليها تاريخ عمارة سور المدينة وهي:

أ) البلاطة الأولى فوق باب العمود، منقوش عليها التاريخ المبين سنة 944 هـ –1537 م.

ب) البلاطة الثانية فوق باب الأسباط منقوش عليها تاريخ عملها 945 هـ –1538 م.

ج) البلاطة الثالثة فوق باب الخليل.

د) البلاطة الرابعة فوق باب النبي داود منقوش عليها 947 هـ –1540م.

ثانيا: أمر بترميم قلعة باب الخليل،

ثالثا: أمر بترميم بركة السلطان الكائنة على طريق المحطة جنوب باب الخليل.

رابعا: أمر بتعمير سبل المياه في المدينة المقدس وهي:

1. السبيل ال واقعة في الجهة الجنوبية من بركة السلطان.
2. أنشا السبيل الواقعة بباب السلسلة أمام المدرسة التنكيزية
3. أنشأ السبيل الواقعة في طريق باب الناظر قرب الأسباط سنة 943 هـ - 1536م.
4. السبيل الواقعة في طريق الواد.
5. السبيل الواقعة في ساحة الحرم القدسي الشريف إلى الشمال من باب شرف الأنبياء، عند ملتقى الطريق المؤدية إلى طلعة التكية وباب الناظر من أبواب الحرم، يعتقد بأن هذه السبيل قد بنيت في عهد الملك المملوكي الأشرف قايتباي، وتم ترميمها في عهد السلطان سليمان القانوني.
6. ترميم سبيل شعلان عام1622م، وقد بناها الملك المعظم عيسى وجددها الأشرف برسباي.

خامسا: في عام 1542 م عمّر قبة الصخرة وأعاد تبليطها، وعمّر جدران المسجد الأقصى المبارك وأبوابه وسد الباب المعروف بالباب الذهبي في المسجد، وفتح

الباب المعروف بباب ستنا مريم في المسجد، وعمّر الباب الغربي لقبة الصخرة المشرفة.

سادسا: عام 969هـ – 1516م جدد القاشاني الذي نراه في قبة السلسة من الداخل.

سابعا: عام 948هـ – 1540م أنشا الأمير بايرام جاويش الذي كان ناظراً، لبناء سورالقدس المدرسة الرصاصية الملاصق إليها تكية خاصكي سلطان

ثامنا: عام 936 هـ أي في السنة التاسعة من سلطنتة حوّل مقام النبي داود إلى مسجد

تاسعا: تم في عهد إنشاء مسجد فوق جبل الزيتون(الطور) عام 1517م.

عاشرا: عام 945هـ 1538م بني محراب النبي غربي الصخرة إلى الشمال بينها وبين قبة المعراج.

حادي عشر: عام 926هـ – 1520م عهد إلى آل أبي غوش بحراسة طريق القدس – يافا وأجاز لهم أن يحصلوا بعض العوائد من السياح النصارى الذين يسلكونها.

ثاني عشر: فرض على الحجاج النصارى رسوما يدفعونها للدولة لدى زيارتهم الكنائس القدس. [1]

ثالث عشر: في سنة 1020 هـ وفق 1611 م بنى مسجد الحنابلة الواقع تحت المدرسة السلطانية غربي المسجد الأقصى المبارك

رابع عشر: بناء تكية خاصكي سلطان: "تم في عهده إنشاء التكية المعروفة بتكية "خاصكي سلطان" التي ما زالت تعمل حتى أيامنا هذه، في عقبة المفتي بجوار دار الأيتام الإسلامية الصناعية، فقد أرادت زوجته، الروسية روكسلانه أو (خرّم) بإنشاء هذه التكية عام1521م، وهي عبارة عن "رباط ومطبخ " وكانت مجمعاً بنائياً ضخماً يضم مسجداً وخاناً ورباطاً ومدرسةً ومطبخاً.

---

(1) مصطفى مراد الدباغ ، المصدر نفسه ج10 ص 8.

التعداد السكاني في القدس في القرن السادس عشر

إن عدد سكان القدس طيلة القرن السادس عشر لم يتجاوز أربعة عشر ألفا، ويبين الجدول التالي المستند إلى دراسات برنارد لويس وأمنون كوهين لدفاتر التحرير العثمانية، تطور السكان في القرن السادس عشر بأرقام تقريبية:

السنة	المجموع	المسلمون	المسيحيون	اليهود
1525	4700	3100	600	1000
1538	7900	6000	750	1150
1553	13384	10100	1650	1634
1562	12650	9900	1550	1200
1596	7610	7300	210	100

ويتضح من هذا الجدول أن عدد سكان القدس بلغ أوجه في أواسط القرن السادس عشر، ثم بدأ في التناقص، وربما يرجع الانخفاض الكبير في سنة 1596م إلى النقص في الدفتر رقم 505، وأن عدد سكان فلسطين، وفقا لهذا الدفتر كان 206290 نسمه وعدد سكان سنجق القدس 42100نسمه.

إن الأكثرية الساحقة من السكان، كانت تتألف من أهالي المدينة المسلمين العرب، ولكن كانت هناك نسبة صغيرة من المسلمين، الذين اختاروا الإقامة في القدس، بعد أن وفدوا إليها من أقطار إسلامية وعربية مختلفة مثل المغرب وسوريا ومصر والعراق وتركيا والبوسنة (البشناق) والهند وفارس، وعدة أقطار أخرى في آسيا الوسطي.

القدس في عهد السلطان أحمد الأول بن محمد الثالث 1630 م

عرف الناس في عهده التبغ لأول مره واستعملوه في هذه البلاد، كما أنه حرّم بيع الخمور في القدس وفي جميع أنحاء السلطنة .

القدس في عهد السلطان مراد الرابع

أمر السلطان ببناء قلعة سميت باسمه "قلعة مراد" عند برك سليمان الواقعة على الطريق الموصل من القدس إلى الخليل، وأقام عليها حراسا (دزدارا) وأربعين جنديا بمدافعهم وأسلحتهم ومهماتهم الحربية، وقد أنشأ داخل هذه القلعة مسجداً وخمسين منزلاً صغيراً لسكن الجنود.[1]

القدس في عهد السلطان محمد الرابع 1948م

تم في عهد هذا السلطان الإنشاءات التالية في القدس وهي:

أولا: في عام 1651 م تم أنشاء المصلى الكائن بجانب سبيل شعلان.

ثانيا: في عام 1655 م تم بناء المئذنة الكائنة بداخل القلعة، القدس في عهد السلطان محمود الأول تم في عهده تجديد بناء حائط الخندق، وكان هذا قد تهدم تم سنة 1738 م تجديد عمارة المسجد الواقع في القلعة.

القدس في عهد السلطان مصطفى الثالث1171 هـ - 1187 هـ / 1757 م – 1773 م

وقعت في عهده الفتنة التي حدثت عام1757 م في كنيسة القيامة بين الروم الأرثوذكس والإفرنج، وقع على إثرها الكثير من الجرحى ونهبت قناديل وغير ذلك، ولما رفع الأمر إلى الباب العالي، وكان راغب باشا أحد ولاة القدس السابقين صدراً أعظماً، فاز الأروام على خصومهم وشدت الحكومة من أزرهم وسلمتهم جميع الأماكن المقدسة.

---

(1) عارف العارف، مصدر سابق، ص 267.

القدس وغزو نابليون بلاد مصر وفلسطين

لم يهاجم نابليون القدس بحجة أنها بلاد جبلية، واهتم فقط بمهاجمة المواقع العسكرية، وتسلم رسالة من أهل القدس تشير إلى أنهم يتبعون إلى عكا، وأن من تكون له الغلبة على عكا تكون القدس تابعة له حيث أنها بلاد تفيض بالأماكن المقدسة. ثم اندحر نابليون عن أسوار عكا شر اندحار، فعاد إلى بلاده فرنسا، واستمر الحال على وضعه في هذه الديار.

القدس في عهد السلطان محمود الثاني1223- 1255 هـ 1808- 1839م

ومن أهم الأعمال التي قام بها في القدس خلال فترة حكمه:

إضافة النقوش إلى المسجد الأقصى. أما قبة مسجد الصخرة فقد دعمت في عهد ابنه السلطان عبد المجيد، مع إضافة عمارات جديدة إلى الحرم الشريف لم يبن مثلها منذ عهد عبد الملك بن مروان [1]

أبرز الأحداث التي وقعت في القدس في هذه الفترة هي:

1. ثورة الإنكشارية: قام الجنود الإنكشاريون بتمردهم، إثر إحلال جنود محلهم في القلعة، قلعة القدس، وأخذوا يعيثون فساداً في المدينة فهجموا على كنيسة القيامة التي أخذ الروم في تجديد بنائها إثر أحداثها عام 1808 م، وقتلوا وجرحوا بعض من وجدوهم فيها، وطردوا المتسلم منها واعتصموا في القلعة، ولما علمت دمشق بما جرى، استنجد واليها بسليمان باشا والي عكا الذي أصدر الأوامر اللازمة بتجريد حملة لتأديب العصاة بقيادة الأغا محمد ابو زريعة

(1) بيان نويهض الحوت ، المصدر نفسه، ص 130.

مغربي، وأمر بفتح القدس وقطع دابر الفتنة فقتل من فيها وقد بلغ عدد الرقاب ستة وأربعين رقبة.[1]

2. عام 1227 هـ 1812 م قام بإعمار قناة السبيل التي تجري فيها مياه برك سليمان إلى القدس.

3. عام 1233 هـ 1816 م تم ترميم المسجد الأقصى على نفقته الخاصة. وأنشأ معملا خاصا بالقدس للكاشاني وعيُن له الموظفون والإداريون وأوتي له بالصناع المهرة والأدوات اللازمة من الشام، كما جلب التراب اللازم من مغارة بالقرب من إنطاكية وكذلك تم تغيير رخام الصخرة.

4. تغيير الزي: علاوة على الإصلاحات التي تمت في عهد هذا السلطان في ديار بيت المقدس، فإن للعادات والزى الأثر الواضح في حياة الناس، في جميع نواحي السلطنة العثمانية، ومن ضمنها بيت المقدس، فقد تأثر أهالي هذا البلد كالآخرين بالزى الذي فرضه السلطان محمود الثاني على رعايا الدولة، حيث تم اتخاذ اللباس الإفرنجي والطربوش بدلا من العمامة وكان ممن اقتدى بهذا السلطان أهالي بيت المقدس كبقية مناطق الدولة. [2]

5. أمر المسيحيين الأرثوذكس بألا يعمروا أي قسم من كنيسة القيامة أو أي معبد من معابدهم، إذ كان يكرههم كرها شديدا، وذلك بسبب تحريض أبناءجنسهم على الحكومة التركية .

6. تصريح المرور: ومن الأوامر التي أصدرها بألا يدخل أو يمر من القدس إلا بتصريح مرور." [3]

---

(1) العوره،عادل،**خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية** 182-184 **وتاريخ ولاية سليمان باشا،** 88-89 في حوادث سنة 1223 هـ.

(2) مصطفى مراد الدباغ، المصر نفسه، ج10 ص 15.

(3) المصدر نفسه ص 276.

القدس في عهد محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا

ولد هذا الرجل في مدينة قوله سنة 1183هـ 1769م.[1] جاء إلى مصر على رأس فرقة الروملي لإخراج الفرنسيين منها واستطاع أن يصبح والياً على مصر سنة 1805م.[2]

استعان به السلطان محمود الثاني في حروب المورة، وكذلك في حربه ضد مناوئيه في عكا.[3]

استطاع أن يقتحم عكا عام 1832م وبهذا فقد بسط نفوذه على فلسطين وبلاد الشام عامة وأصبحت القدس ضمن هذا النظام الجديد. وأصدر أمره إلى سكان القدس بتاريخ 25 / 4 / 1834 م طالبا منهم رجلا من خمسة رجال وقيل رجلا من عشرة رجال لإلحاقهم بالجيش.

أهل القدس يتمردون على قوات إبراهيم باشا: تأججت الكراهية بين أهل البلاد وعلى رأسهم أهالي مدينة القدس وذلك بسبب قيام محمد علي باشا باستنزاف خيرات البلاد وفرضه التجنيد الإجباري على الشباب، ونتيجة للصراع الداخلي بين الطوائف أرسل اباشا للمسلمين ببيت المقدس كتاب تهديد يطلب منهم فيه التخفيف على غير المسلمين من الضرائب وإفساح المجال لهم وعدم التضييق على الحجاج غير المسلمين.

ثار أهل القدس على إبراهيم باشا حيث افرط عقد الأمن وسادت لفوضى واختفى اليهود والنصارى في كنسهم وقتل خلق كثير. حدثت مصادات عنيفة بين الجنود وبين أهل بيت المقدس الذين أتتهم نجدة من نابلس والخليل حوالي عشرة آلاف ثائر واقتحموا القلعة إلا أن الجند استطاعوا أن يصمدوا و يسيطروا على الوضع أخيرا، ثم عاود الثوار مهاجمتهم لهذه الحامية وكادوا أن يستولوا على القلعة لولا نيران المدفية. علم

---

(1) المحامي، محمد فريد بك، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، بيروت:دار النفائس، ط2 المحقق د/ إحسان حقي1403هـ ج1 ص 398.

(2) الروقي، د/ عايض، **حروب محمد علي في الشام** ص 32 .

(3) د / عمر عبد العزيز عمر، مصدر سابق، ص 316.

إبـراهيم باشـا بـالخبر فـسار بتـسعة آلاف جنـدي إلى القـدس واقتحمهـا وفـر المـسلحون فاستقبله اللاتين والأرمن واليهود وفريق من الأرثوذوكس ولم يقابله أحـد مـن المـسلمين. ثم توجه لصلاة الجمعة في المسجد الأقصى المبارك وأعلن العفو العـام عـن الثـوار كلـهم ولم يستجب له أحد فتجمعوا في قرية مخماس يـوم الخمـيس 31 مـارس 1834م وهـاجمهم وقتل خلق كثير منهم، إلا أنهم عادوا الكرة مرة أخرى فتجمعوا في الجنـوب بـالقرب مـن مار الياس يوم الإثنين 4 ينيو 1834م فطاردهم حتى أرجعهـم إلى بيـت لحـم، فاختبـأوا في المغور وخلف الأشجار التي أمر الباشا بقطعها بحجة حاجتـه إلى الحطـب. عـاد الباشـا إلى القدس وانكمش في القلعة وطلب من والده النجدة حيث رفده بثلاث كتائـب مـن المـشاه وكتيبتين من الفرسان وألفا من البدو، خف محمد علي باشـا بالجنـد مـن مـصر علـى يافـا حيث قابله ولده إبراهيم باشا هناك وبصحبته بعض أعيان القدس الـذين تفقـدهم الوالـد وازدراهم وأمر بنفيهم على مصر.

عاد إبراهي مباشاإلى القدس ومعه ثلاثون ألفا مـن الجنـد حيـث خبـت بعدئـذ نـار الثورة وتوجه إلى مدينة الخليل حيث أعمل فيها السيف وسالت دماء كثيرة ونهبت المحـات التجارية وهدمت المنازل وأسر 630 شابا وألحقهم بالجيش المصري.

هذه سياسة القمع التي انتهجها محمد علي باشـا وولـده إبـراهيم ضـد أهـالي بيـت المقدس الذين لم يستسلموا لـه طيلـه فـترة وجـوده فيهـا وكانـت النتيجـة أن ارتحـل عنهـا وتشتت جيشه وترك خلفه مآسي وكرها شديدا.

أهم الأعمال التي تركها إبراهيم باشا في القدس:

1- في عام 1839 م أنشأ جانبا من القشلاق الواقع بالقرب مـن القلعـة القديمـة ببـاب الخليل.

2- جدد عمارة بناء السرايا القديمة الواقعة على طريق الجسمانية في القدس الشريف.

3- بتاريخ 16 أغسطس سنة 1839 م أنشأ طاحونة القمح الواقعة إلى الجهة الغربية من مدينة القدس والتي أخذ أهل القدس بطحن حبوبهم فيها، واستفاد منها لإمداد جيشه أيضا.

4- انشأ الزاوية الإبراهيمية الواقعة شمالي ضريح النبي داود عليه السلام. وقد حوصر في هذا المكان في إحدى منازلاته بيد أنه نجا من هذا الحصار فيما بعد.

5- اهتمامه بالقلاع وإعمارها. فقد عمّر قلعة في وادي الجوز شمال القدس. وأخرى في والطور وعمّر القلعة الكائنة بين الخليل والقدس. كما أنشا قلاعا بين القدس ويافا.

الحالة الاجتماعية والاقتصادية في القدس في عهد إبراهيم باشا

إنصافا للحق، فيجدر بنا أن نستعرض انجازاته في هذه المرحله في القدس وهي:

1. حاول اليهود وعلى رأسهم موسى منتفيوري استئجار أرض في القدس مساحتها خمسون فدانا بالإضافة إلى خمسين قرية من أراضي فلسطين لأبناء طائفتهم، فعرض الأمر على إبراهيم باشا، وتم العرض على والده محمد علي باشا، فكان موقفهما بعدم الموافقة على مطالبهم.
2. حاول اليهود وبطرق شتى، استغلال الوضع الراهن آنذاك والاندفاع صوب حائط البراق لتبليطه، وأخذ مكان لهم فيه للعبادة، فكانت الإجابة بالرفضاً.
3. أصلح بين الطوائف النصرانية التي كانت تتصارع بينها في كنيسة القيامة، إثر الشجار الذي وقع بين الروم واللاتين.
4. تغيير الزى الذي كان متبعا في عصره، حيث قلده المواطنون في زيه واستبدلوا العمائم بالطربوش المغربي.

5. المساواة الاجتماعية بين جميع طوائف المجتمع، وألغى الضرائب عن اليهود والنصارى وساواهم بالمسلمين من حيث اللباس، واكتفى بضريبة الخراج مقابل تجنيد المسلمين بالجزية.

6. إعطاء الحرية للتجار بالبيع والشراء داخل البلاد.

7. إلغاء الضرائب التي كان يجبيها حراس كنيسة القيامة من عائلتي جوده ونسيبه على الزوار.

8. الإصلاح الزراعي وتشجيع المزارعين على الاستفادة من أرضهم، وتوزيع الحبوب والأشجار المثمرة عليهم والمحاريث.

9. تشجيع زراعة الزيتون والاستفادة من إنتاجه في صناعة الصابون المحلي.

10. اهتم بالطرق فأنشأ العديد من الطرق الواصلة بين المدن والقرى لتسهيل وتقريب المسافات.

11. إصلاح الوضع الإداري وأحوال الموظفين.

12. ترتيب المحال التجارية في القدس، فأمر بتوسيع الأسواق وإزالة المصاطب الواقعة أمام المحلات التجارية لتوسيع الطرقات على الناس والتجار.

13. وعلى الصعيد الإداري فقد أنشا مجالس شورى في المدن والتجمعات السكانية التي يزيد عدد سكانها عن العشرين ألفا.

14. وعلى الصعيد السياسي، فلم يسمح لوكيل قنصل أمريكا برفع علم بلاده في القدس.

15. سمح لقنصل فرنسا بإنشاء بناء للرئيس، وآخر للمرضى في نفس دير اللاتين في القدس.

القدس في عهد السلطان العثماني عبد المجيد 1839 م — 1861 م

كان عدد سكان القدس في هذه الفترة حوالي عشرين ألف مواطن، منهم ألف مواطن نصراني والباقي من المسلمين. عندما ورد نبأ الانتصار التركي على الروس قامت في القدس الزينات، واستمرت الاحتفالات ليل نهار لمدة ثلاثة أيام، فأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة وأضيئت المساجد والمآذن، كما احتفلت السفارتان الفرنسية والبريطانية بهذا الانتصار على الروس،

حيث قام بإجراء الإصلاحات الإدارية والمالية في أجهزة الدولة وازداد التقارب الغربي العثماني، فرفعت الأعلام البريطانية والفرنسية والنمساوية والروسية والأسبانية والأمريكية وغيرها على السفارات في بيت المقدس.

انحبست الأمطار، وضاق الناس ذرعاً، كما انتشرت الأمراض وعم الغلاء والوباء وقلّت سيطرة الدولة على الناس بسبب الفوضى العارمة، ، تحسن الوضع إبان عودة الحياة إلى ما كانت عليه، حيث أنقذت البلاد بهطول الأمطار، وتحسنت الأحوال الاقتصادية، فتح الله عليهم أبواب السماء مدراراً فتوسعوا في البنيان، وخرج قسم منهم في هذا العام 1858 م وبنوا الأبنية الحديثة خارج أسوار القدس، فبرزت أطماع اليهود مما أتاح لهم التوجه بتفكيرهم والعمل مع دول الغرب الاستعمارية، الطامعة في وطن لهم في فلسطين وبيت المقدس.

القدس ونصيبها من الخط الهمايوني في هذه الفترة

أولاها العثمانيون عناية خاصة، فاقت غيرها من المدن التي كانت تابعة لها لأسباب منها.

1. أن هذه الدولة كانت دولة إسلامية سنية، ومن مبادئها الحفاظ على منابع الإسلام، كمكة والمدينة وبيت المقدس، لما لهذه المدن وما فيهما من قداسة

وطهارة، وأماكن إسلامية تهم كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها، وجوهرتها المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة.

2. للقدس خاصية مميزة عن غيرها من المدن الإسلامية، ذلك لأن هذه المدينة مركز الصراع العقدي بين أبناء الديانات الثلاث، ولهذا فقد أتبعتها في العديد من عهود حكمها إلى الآستانة مباشرة.

3. أدركت الحكومة العثمانية، ما للدول الغربية والشرقية من أطماع في بيت المقدس، كالصراع على الأماكن المسيحية بين فرنسا وبريطانيا من جهة وروسيا من جهة أخرى.

4. الجذور العميقة التي تربط أهل القدس في مدينتهم، ذلك في المقاومة الشرسة التي قادوها ضد إبراهيم باشا، وما قدمه أهل هذه المدينة من تضحيات في سبيل صده عن مدينتهم الخالدة.

لقد كانت القدس على رأس أوليات المدن التي حظيت بالتنظيمات الإدارية، ودخلت إليها التشريعات السلطانية، وطبقها أهل هذه المدينة في نواحي حياتهم المختلفة، ومن هذه الإجراءات:

أولا: التقسيم الإداري – أصدرت الحكومة التركية عام 1864 م، نظام الولايات الذي كفل للحكومة المركزية الهيمنة على جميع شؤون الإدارة في الولاية.

ولما عاد العثمانيون إلى بلاد الشام 1256هـ – 1840م أصبحت التقسيمات الإدارية في فلسطين، تضم لواء القدس الذي يتبع ولاية صيدا ولوائي نابلس وعكا اللذين يتبعان ولاية دمشق وفي الفترة الواقعة بين عامي 1841م – 1844م ضمت ألوية القدس ونابلس وجنين وغزه إلى ولاية صيدا. ونتيجة لمنازعات الدول الأوروبية حول الأماكن المسيحية المقدسة التي أدت إلى نشوب حرب القرم 1854م – 1856م قررت الدولة العثمانية رفع لواء القدس إلى مرتبة ولاية عام 1856م. وفي الفترة الواقعة بين عامي 1864م – 1872م

كانت ولاية دمشق تضم ألوية القدس ونابلس وعكا وبذلك نزلت القدس إلى مرتبة تابعة إلى ولاية دمشق بعد أن كانت تتبع الباب العالي رأسا.[1]

ثانيا: التعليم – في عام 1857 م أنشئت وزارة التربية والتعليم في الإمبراطورية العثمانية باسم (معارف عمومية نظاراتي) وكانت مراحل التعليم ثلاثة وهي:

المرحلة الابتدائية - المرحلة الرشيدية - المرحلة الإعدادية.[2]

ولهذا كان أبناء هذه الطبقة هم المرشحون لتبوء المراكز الحساسة، والمتقدمة على الصعيد المحلي، وفي المحافل السلطانية لأنها الطبقة المتعلمة التي أتيحت لها فرصة التعلم.

ثالثا – الأراضي، فقد تم مسح وتسجيل الأراضي في متصرفية القدس، فواكب تطبيق تعليمات الأراضي في متصرفية القدس عدة تطورات، من أبرزها عمليات المسح والتسجيل، فقد أكدت التنظيمات وفي مقدمتها قانون الأراضي 1274هـ - 1858م على وجوب حصول المتصرف بالأراضي الأميرية على سند طابو – قوجان – موشح بالطغرة السلطانية، يكفل حقوق الخزينة القابضة على رقبة الأرض من جهة، والمتصرف بالأرض أو المستأجر بها من جهة أخرى. كما بينت أنظمة الطابو اللاحقة على صدوره ترتيب الحصول على السند، وفي سبيل التعرف على مدى فعاليتها كواقع عملي على أراضي المتصرفية لا بد من التوقف عند النقاط التالية:

1. ألحت سجلات المحاكم الشرعية عام 1266هـ 1849م إلى وجود موظف خاص، يعني بشؤون الأراضي يعرف (بمأمور الأملاك والعقارات) كما أشارت إلى وجود سندات طابو قديمة بيد السكان بمن فيهم الزعامات الإقطاعية المحلية، وبحلول عام 1317هـ 1899م وعلى إثر تشكيل قضاء بئر السبع في المتصرفية، كان هناك إلى جانب مديرية الدفتر الخاقاني – الدائرة

(1) محمود طلب ألنموره ، المصدر نفسه، م ص 76.

(2) الحولي، عليان عبد الله، **يوم القدس**، الندوة الرابعة ، نابلس: جامعة النجاح الوطنية، سنة 1998م ص70.

المركزية في مدينة القدس، أربع دوائر أخرى فتحت أبوابها في سراي الحكومة في كل من غزة ويافا والخليل وبئر السبع.

2. المساحة – نص البند الأول من لائحة تعليمات بحق سندات الطابو الصادر عام 1276هـ 1859م، على أنه لا يمكن لأحد أن يتصرف بأراضي أميرية، بغير سند على أي صورة كانت من الصور، وعليه فإن من لا يوجد بيدهم سندات عليهم أن يأخذوا سندات، والذين بيدهم سندات عتيقة، ما عدا سندات الطابو المتوجة بالطغراء يبدلوا سنداتهم أيضا ... هذا ما طبق على أرض الواقع الأراضي الدولة العثمانية، وكان من ضمن هذه الإجراءات ما حدث في مدينة القدس.

3. تسجيل الأراضي – تزامنت عمليات التسجيل ومنح سندات الطابو مع انطلاقة عجلة المسح الميداني عام 1285هـ 1868م. ففي عام 1266هـ 1849م –على سبيل المثال – لم يتوان الصدر الأعظم عن تصدير أوامره إلى متصرف – والي – القدس الشريف أدهم باشا لتشديد الرقابة على تسجيل العقارات للحيلولة دون تملك الأراضي للأجانب. (1)

4. ومما هو جدير بالذكر بأنه قد زاد في نفوذ أعيان المدن، بشكل عام والقدس بشكل خاص نجاحهم، في تسجيل بعض أراضي الدولة، وأراضي الأوقاف بأسمائهم.

رابعا: الناحية الاجتماعية – لما صدر هذا القانون، تمكنت الدولة العثمانية من القضاء على نفوذ الحكام الشيوخ المحليين في جبال نابلس والقدس والخليل بحلول عام 1860م ووضعت حداً لتمردهم وتحديهم للسلطة المركزية، ففي جبال القدس كانت الخلافات بين القيسيين واليمنيين أشد مما كانت عليه في جبل نابلس،

(1) أبو بكر، ألدكتور أمين، **يوم القدس**، نابلس: جامعة القدس الوطنية،يوم القدس، الندوة الثانية أيار سنة 1996 ص 60.

وشملت تلك الخلافات معظم أنحاء جبال القدس، وكان من زعماء القيسيين في جبال القدس آل سمحان (بنو حارث) والبراغثة (بنو زيد) وآل اللحام في العرقوب ون زعماء اليمنيين آل أبي غوش (بنو مالك) الذين شمل نفوذهم بيت لحم وجزءاً من بني حسن ورام الله والبيرة.

النشاط العمراني في القدس في هذه الفترة

بدأ الازدهار الحقيقي في البناء بعد حرب القرم سنة(1853م-1856م) خلال عقد واحد من السنين، تم تنفيذ أربعة وعشرين مشروع بناء داخل الأسوار وخارجها، (من بينها) المجمع الروسي الضخم ألذي أقيم في منطقة الميدان الكائنة شمال غرب المدينة. إن بناء الكنائس الجديدة والأديرة والكنس والمساجد والمدارس والمستشفيات ودور الأيتام والنزل (الهوسبيسات) والفنادق والقنصليات... الخ، استمر دون انقطاع حتى الحرب العالمية الأولى، بل إن الكنيسة البروتستانتية الألمانية المعروفة باسم كنيسة المخلص، تم تكريسها بحضور الإمبراطور الألماني سنة 1898م. وفي نهاية القرن التاسع عشر أحصى (كينية) Cuinet ووصف مثلا: 42 ديراً مسيحياً و 28 نزلاً(هوسبيس) و 17 مستشفى و54 مدرسة باستثناء المدارس الدينية الإسلامية.

وما إن تم تعبيد طريق بين يافا والقدس، الأمر الذي تسنى معه نقل مواد البناء المستوردة بالعربات دون صعوبة، حتى أدخلت أساليب عمرانية جديدة في الأحياء السكنية خارج البلدة القديمة. ابتداء من سنة 1880م فصاعداً، فنشأت مدنية جديدة جنبا على جنب مع القدس التاريخية.[1]

ومن الأعمال العمرانية التي تمت في عهده ترميم المسجد العمري الواقع قبلي كنيسة القيامة.

---

(1) شولش، اسكندر، **القدس في القرن التاسع عشر** (كامل العسلي، لقدس في التاريخ) عمان: عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، 1992 م ص 283.

القدس في عهد السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثاني 1861 م – 1876م.

واصل هذا السلطان في توجهاته الإصلاحية صوب هذه البلاد – بيت المقدس – تحديداً وقام بإجراء الإصلاحات اللازمة، وأوصل القدس بالمدن المجاورة ومدها بشبكة من الطرق والمواصلات التي كانت متوفرة في عصره، وكان مما تم إنجازه في عصره في بمدينة بيت المقدس ما يلي:

أولا: في عام 1867 م تم إنشاء الطريق الموصل بين القدس ويافا.

ثانيا: في عام 1870 م تم إنشاء الطريق الموصل بين القدس ونابلس.

ثالثا: إدخال نظام الزي الجديد، ألا وهو لبس الطربوش الذي نقله الأتراك عن اليونان ولبسه أهل القدس كبقية أبناء الوطن التركي عامة، فكان عدد سكان القدس في هذه الفترة 68ألفا.

واصل هذا السلطان في توجهاته الإصلاحية صوب هذه البلاد – بيت المقدس – تحديداً وقام بإجراء الإصلاحات اللازمة، وأوصل القدس بالمدن المجاورة ومدها بشبكة من الطرق والمواصلات التي كانت متوفرة في عصره، وكان مما تم إنجازه في عصره في بمدينة بيت المقدس ما يلي:

أولا: في عام 1867 م تم إنشاء الطريق الموصل بين القدس ويافا.

ثانيا: في عام 1870 م تم إنشاء الطريق الموصل بين القدس ونابلس.

ثالثا: إدخال نظام الزي الجديد، ألا وهو لبس الطربوش الذي نقله الأتراك عن اليونان ولبسه أهل القدس كبقية أبناء الوطن التركي عامة، فكان عدد سكان القدس في هذه الفترة 68ألفا.

بلدية القدس في عهد السلطان عبد العزيز

باشرت بلدية القدس أعمالها بالفعل في عام 1867 م أي في عهد السلطان عبد العزيز.

ومدينة القدس هي المدينة الوحيدة في فلسطين التي زاد عدد سكانها على عشرة آلاف نسمه في بداية القرن الثامن عشر.

... تدل الدراسات المتوفرة على أن العائلات المتنفذة قد سيطرت على بلدية القدس، وتنافست على عضوية ورئاسة المجلس البلدي الذي تعاقب على رئاسته منذ عام 1863م – 1917م 23 رئيسا وقد ترأسه سليم أفندي الحسيني لمدة ثمانية عشر عاماً، وخلفه ولداه في رئاسته وكان رؤساء بلدية القدس حتى عام 1914م من عائلات الحسيني والخالدي والعلمي والدجاني[1].

بيد أننا لو نظرنا إلى الوراء في ضوء التغييرات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، لظهر لنا أن سنة 1882 م كانت أيضا نقطة تحول. إن الاحتلال البريطاني لمصر وبداية موجة الهجرات اليهودية الأولى وكلاهما حدث سنة 1882م كانا نقطتي البدء لخطين من التطور، الاستعمار البريطاني من جهة، والصهيونية من جهة أخرى، تحرك كل منهما في باتجاه الآخر والتقيا أخيرا خلال الحرب. وكانت النتيجتان صدور وعد بلفور (2 تشرين الثاني 1917م ودخول أللنبي إلى القدس كانون الثاني 1917م).[(2)]

---

(1) محمود طلب النموره، سبق ذكره،ص 124.

(2) الكسندر شولش، **القدس في القرن التاسع عشر**، من (كامل العسلي، القدس في التاريخ) عمان: منشورات عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية) 1992م ص 295.

صلاحيات بلدية القدس

كان للمجلس البلدي صلاحيات واسعة في حياة الناس اليومية وكان من وظائفه ما يلي:

1. فرض النظام أو القانون على المواطنين: فقد تولت بلدية القدس الحفاظ على النظام والقانون وفي عام 1886م عينت مجلسا مؤلفا من أربعة عشر رجل شرطة، كان من ضمن واجبا تهم القيام بجولات في شوارع القدس، وساحاتها المفتوحة للسهر على رفاهية السكان والإشراف على النظام العام ونظافة المدينة، وكان رجال الشرطة يمنعون إطلاق النار في الليل ويمنعون المرور في الليل في شوارع المدينة لا لمن كان يحمل قنديلا مضاء.
2. الإشراف التام على التعداد السكاني وتسجيل السكان المواليد والوفيات والأجانب الذين كانوا يفدون إلى المدينة أو يعيشون تحت رعاية القنصليات الأجنبية.
3. تنظيم حركة السير والمرور وتسهيل وسائل المواصلات وتنظيم رسوم الأحمال على الدواب.
4. الإشراف على المؤسسات الاجتماعية الخاصة بنزل المعوزين والفقراء والمكفوفين وغيرهم.
5. كانت البلدية تشرف على الطرق والأبنية العامة كالمستشفيات والمدارس والمساجد وغيرها.
6. الإشراف على الناحية الصحية داخل حدود البلدية كالنظافة ومعالجة المرضى فقد عينت بلدية القدس طبيبا يعالج المرضى من أتباع جميع الديانات مجانا. ثلاث مرات في الأسبوع.[1]

---

(1) المصدر نفسه ص 129.

مشاركة أهل القدس في الإدارة العثمانية

شارك أبناء بيت المقدس في العديد من الوظائف البارزة في الحكم التركي، فكان أبناء العديد من العائلات التي كانت تتولى رئاسة بلدية القدس أمثال عائلة الحسيني والخالدي وغيرهم، كان لهم نصيب في استلام المراكز المختلفة في العهد التركي، حيث أن الحكومة التركية كانت تنظر إلى رعاياها على أنهم أبناء ملّة واحدة،

كان من أبرز الشخصيات المقدسية التي يلقى عليها الضوء في هذه الفترة وانتخب رئيسا لبلدية القدس وعضوا في مجلس المبعوثان العثماني المصلح يوسف الخالدي حيث شعر بريح التغيير القادمة على المنطقة وعمل ما بوسعه لتنبيه الناس إلى الأخطار المحدقة بقضيته، تنبه هذا المصلح إلى الخطر الصهيوني، حيث ناشد الصهاينة بواجب مقدس للضمير.نظراً لحاجة هذا الجيش إلى الرجال فقد فرض التجنيد الإجباري والتقط الشباب من القرى والمدن التي كان يحتلها وألحقهم بوحدات جيشه، مما تسبب في ازدياد الكراهية له.

مائتي رجل من أهل مدينة القدس وثلاثة آلاف رجل من أقضية القدس ونابلس والخليل.

كان من الإجراءات التي فرضها على أهل البلاد والتي زادت في كراهية بل وفي نفورالناس منه والحقد عليه وبتأليب من مشايخ البلاد أنه سلب نفوذ هؤلاء المتنفذين

وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة وأهل البيت المقدس من جميع المذاهب، قبطا كانوا أن أرمنا، في دينهم ودنياهم من إقامة شعائر دينهم، ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين لبحر الشريعة شيئا من الكلف والمفارم، ولا تضيقوا على زائري كنيسة القيامة، ولا تلزموا الصغار بدفع المال، فإن أطعتم أحسنتم لأنفسكم، وإن خالفتم أسأتم لها. والسلام عليكم ورحمة الله"[1]

(1) عارف العارف، مصدر سابق، ص 280.

إليك ما جرى في هذه الفترة في القدس الشريف على لسان المؤرخ الكبير (عارف العارف) في كتابه "المفصل في تاريخ القدس."

"اغتنم المقادسة سفر إبراهيم باشا إلى يافا، ليتفقد أحوالها، فعقدوا اجتماعا حضره عدد كبير من مشايخ القرى المجاورة. وقرروا إعلان الثورة (28 نيسان 1834م) وفي(8 مايس 1834 م) حاصروا القدس، وكان فيها ألف جندي، تركهم إبراهيم باشا خصيصا لحماية القلعة. وفي اليوم التالي9مايس 1834م أتتهم نجدة من نابلس والخليل، عشرة آلاف ثائر، كلهم مسلحون، وأول عمل قاموا به أنهم أنذروا رؤساء الجند المرابطين في القلعة، كي يغادروا المدينة، فكان جواب هؤلاء الرفض في اليوم التالي 10 مايس 1834 م رجع الثوار إلى أعمال العنف والمقاومة، فكان أول عمل قام به البكباشي أنه قبض على أعيان بيت المقدس، منهم نقيب الأشراف عمر أفندي والباش كاتب وسجنهم في القلعة. ولكن ما كاد الخبر يصل إلى نابلس حتى أتت نجدة منها مؤلفة من ألفي رجل مسلح. ولما رأى البكباشي كثرة عدد الثوار، انزوى هو وجنده في القلعة، بعد أن أمر بإغلاق أبواب السور، لكن المقادسة الذين كانوا في داخل المدينة، فتحوا الأبواب للثوار. فدخل هؤلاء المدينة وساروا نحو القلعة بقيادة زعيمهم إبراهيم أبو غوش. فوقع صدام عنيف بين الجند والأهليين. ودام القتال ثلاثة أيام. نهبت خلالها منازل الأتراك ودور اليهود ومخازن الحكومة، وسادت الفوضى في المدينة. وازداد عدد الثوار فأصبحوا عشرين ألفا.

في هذه الأثناء كانت أخبار ثورة القدس قد وصلت إلى إبراهيم باشا في يافا. فطلب في الحال النجدة من بيروت وعكا وطرابلس الشام، فأتته نجدة مؤلفة من تسعة آلاف مقاتل. وفي 24 مايس 1834 م سار بهم فورا إلى القدس، يبغي الانتقام.

تمكن إبراهيم باشا، رغم جميع الحوائل التي وضعت أمامه، من الوصول إلى القدس. غير أنه لم يدخل المدينة. ولم يسمح لجنوده بدخولها. ولم ينصب مخيمه في المكان الذي اعتاد الباشاوات النزول فيه، أي تحت الشجرة الكبيرة في داخل المدينة. بل ذهب

رأسا إلى جبل صهيون، ونصب مخيمه أمام أسوار المدينة عند الباب المعروف بباب النبي داود. وكان يرمي من وراء هذا التريث إلى أمرين:

الأول: الاستراحة من عناء السفر.

والثاني: جس نبض الأهليين واختبار مدى ميلهم إلى الثورة.

أما المسلمون الذين كانوا يعاضدون الثورة، فقد أخذوا عائلاتهم، وفروا من باب الأسباط. فريق سلك الطريق الشرقية التي تؤدي إلى العيزرية، وآخرون سلكوا الطريق الشمالية وذهبوا إلى رام الله، وأما اللاتين والأرمن واليهود وفريق من الأرثوذكس فقد خفوا لاستقباله، ولم يقابله أحد من المسلمين، في اليوم التالي (13 إبريل 1834 م)عبر من باب النبي داود، ففرحت حامية المدينة بدخوله، وأطلقت من مدافعها 33 طلقة لتحيته، وراح من فوره إلى المسجد الأقصى، ليصلي فيه صلاة الجمعة.

بعد صلاة الجمعة أعلن العفو العام، وطلب إلى الثوار أن يعودوا إلى منازلهم، ونادى المنادى أنه يترتب على الناس مسلمين كانوا أم نصارى أو يهودا، أن يفتحوا دكاكينهم وأن يعودوا إلى أشغالهم كالمعتاد، وقبل عودته إلى جبل صهيون، زار كنيسة القيامة، وشاهد قبر السيد المسيح. وبعد الظهر جاء المسيحيون للسلام عليه: اللاتين أولا، ثم الروم فالأرمن، ولكن الثوار لم يلبوا النداء، ولم يتقدم أحد من المسلمين للاجتماع بالباشا، لا: بل راحوا يوزعون النشرات التي تدعو إلى الثورة، وانتقدوا بصراحة أعمال الباشا، وتنادوا للاجتماع في مخماس، تلك القرية الكائنة بين رام الله والقدس، ليبحثوا الطرق الواجب إتباعها لمواصلة القتال.

خبت نار الثورة في القدس، وأرسل إليه ثوار جبل الخليل وفداً يعرض عليه الطاعة، فاشترط عليهم تسليم رؤسائهم أحياء، ولما لم يلبوا طلبه، قاد عليهم جيشا في (24حزيران 1834م) احتل به مدينة الخليل، وجرت بينه وبين الثوار في شوارع المدينة وأسواقها معركة دامت ثلاث ساعات. قاسى السكان خلالها الأمرين، فسالت الدماء،

وهدمت المنازل، ونهبت المتاجر، واعتدى على أعراض النساء، وأسر630 شابا من شبان الخليل، وأرسلوا كلهم إلى مصر، ليخدموا في الجيش المصري

ولما رجع إلى القدس في (29 حزيران 1834م)أصدر أمره إلى سكانها، من غير تفريق بين جنس وجنس أو مذهب ومذهب، كي يسلموا كل ما لديهم من الأسلحة، وكذلك فعل بالقرى المجاورة، والذي لا يكترث لهذا الأمر ولا يسلم سلاحه يعاقب بالإعدام، فأظهروا استعدادهم لإطاعة الأمر، ولكنهم في الواقع لم يسلموه من السلاح إلا ما كان عديم النفع، وأما الأسلحة التي كانوا نهبوها من مخازن الحكومة، فقد أخفوا قسماً منها ورموا القسم الآخر في ساحة الحرم.أما إذا نظرنا إلى جوانب أخرى، فإنه يجدر بنا أن نذكرها وألا ننساها، وأن تذكر الأمور على حقيقتها وما قدمته بل وما تركه إبراهيم باشا خلال فترة حكمه المشحون بالصدامات في هذه البل، فمن هذه الأعمال التي مازالت خالدة لنا في القدس الشريف من ذلك العهد ما يلي:

في عام 1839 م أنشأ جانبا من القشلاق الواقع بالقرب من القلعة القديمة بباب الخليل.

5- جدد عمارة بناء السرايا القديمة الواقعة على طريق الجسمانية في القدس الشريف.

6- بتاريخ 16 أغسطس سنة 1839 م أنشأ طاحونة القمح الواقعة إلى الجهة الغربية من مدينة القدس والتي أخذ أهل القدس بطحن حبوبهم فيها، واستفاد منها لإمداد جيشه أيضا.

7- انشأ الزاوية الإبراهيمية الواقعة شمالي ضريح النبي داود عليه السلام. وقد حوصر في هذا المكان في إحدى منازلاته بيد أنه نجا من هذا الحصار فيما بعد.

8- اهتمامه بالقلاع وإعمارها. فقد عمّر قلعة في وادي الجوز شمال القدس. وأخرى في وادي الجوز والطور وعمّر القلعة الكائنة بين الخليل والقدس. كما أنشا قلاعا بين القدس ويافا.

الحالة الاجتماعية والاقتصادية في القدس في عهد إبراهيم باشا

إنصافا للحق، فبالإضافة لما تقدم من إنجازات عمرانية للقدس الشريف في عهد إبراهيم باشا يجدر بنا، أن نذكر محاسن هذا الرجل، وما قدمه في هذه البلاد من خدمات جلّى وهي:

1- حاول اليهود وعلى رأسهم موسى منتفيوري استئجار أرض في القدس مساحتها خمسون فدانا، بالإضافة إلى خمسين قرية من أراضي فلسطين لأبناء طائفته، فعرض الأمر على إبراهيم باشا، ومن ثم تم العرض على والده محمد علي باشا، فكان موقفها بعدم الموافقة على مطالب اليهود.

2- حاول اليهود وبطرق شتى، استغلال الوضع الراهن آنذاك والاندفاع صوب حائط البراق لتبليطه، وأخذ مكان لهم فيه للعبادة، فكانت الإجابة بالرفض، وعدم تمكينهم من هذا الغرض، حيث فهمت نواياهم وبقي الأمر على ما كان عليه سابقاً.

3- أصلح بين الطوائف النصرانية التي كانت تتصارع بينها في كنيسة القيامة، إثر الشجار الذي وقع بين الروم واللاتين.

4- تغيير الزى الذي كان متبعا في عصره، حيث قلده المواطنون في زيه واستبدلوا العمائم بالطربوش المغربي.

5- المساواة الاجتماعية بين جميع طوائف المجتمع، وألغى الضرائب عن اليهود والنصارى وساواهم بالمسلمين من حيث اللباس، واكتفى بضريبة الخراج مقابل تجنيد المسلمين بالجزية.

6- إعطاء الحرية للتجار بالبيع والشراء داخل البلاد.

7- إلغاء الضرائب التي كان يجبيها حراس كنيسة القيامة من عائلتي جوده ونسيبه على الزوار.

8- الإصلاح الزراعي وتشجيع المزارعين على الاستفادة من أرضهم، وتوزيع الحبوب والأشجار المثمرة عليهم والمحاريث.

9- تشجيع زراعة الزيتون والاستفادة من إنتاجه في صناعة الصابون المحلي.

10- اهتم بالطرق فأنشأ العديد من الطرق الواصلة بين المدن والقرى لتقريب المسافات.

11- إصلاح الوضع الإداري وأحوال الموظفين.

12- ترتيب المحال التجارية في القدس، فأمر بتوسيع الأسواق وإزالة المصاطب الواقعة أمام المحلات التجارية لتوسيع الطرقات على الناس والتجار.

13- وعلى الصعيد الإداري فقد أنشا مجالس شورى في المدن والتجمعات السكانية التي يزيد عدد سكانها عن العشرين ألفا.

14- وعلى الصعيد السياسي، فلم يسمح لوكيل قنصل أمريكا برفع علم بلاده في القدس.

15- سمح لقنصل فرنسا بإنشاء بناء للرئيس، وآخر للمرضى في نفس دير اللاتين في القدس.

القدس من عهد السلطان عبد المجيد إلى نهاية عهد السلطان عبد الحميد

القدس في عهد السلطان العثماني عبد المجيد 1839 م – 1861 م

جرت في عهد السلطان محمود الثاني أحداث بارزة في تاريخ العثمانيين، كان من أبرز هذه الأحداث أمران هامان وهما:

أولا: غزو نابليون بونابرت بلاد مصر والشام وتوقفه على أسوار عكا.

ثانيا: احتلال جيش إبراهيم باشا بن محمد على باشا بلاد الشام، وتوغله في أرض العثمانيين في آسيا الصغرى وارتداه عنها.

تبع عهد محمود الثاني عهد ولده عبد المجيد الذي جرى في عهده فترة الإصلاحات العثمانية المعروفة بفترة التنظيمات الإدارية، التي تمثلت في سلسلة طويلة من القوانين والنظم التي طبقت في عصره على رعايا الدولة العثمانية.

إن الذي يهمنا في هذا السياق حالة القدس الشريف، وما آلت إليه الأحداث إثر هذه الحرب وما ترتب عليها، حيث كان عدد سكان القدس في هذه الفترة حوالي عشرين ألف مواطن، منهم ألف مواطن نصراني والباقي من المسلمين. عندما ورد نبأ الانتصار التركي على الروس قامت في القدس الزينات، واستمرت الاحتفالات ليل نهار لمدة ثلاثة أيام، فأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة وأضيئت المساجد والمآذن، كما احتفلت السفارتان الفرنسية والبريطانية بهذا الانتصار على الروس،

بعد تنفيذ هذا القانون الذي صدر سابقاً وتطبيقه على الولايات العثمانية، والانتصار المؤزر الذي تحقق للعثمانيين، وبمساعدة إنجلترا وفرنسا للعثمانيين على الروس في حرب القرم. أصدر السلطان العثماني عبد المجيد همايونيا أي (قانونا) آخر فأقر فيه كافة المبادئ التي وردت في خط كلخانه، يتعلق أكثرها بحقوق الطوائف غير الإسلامية ومصالحها، وقد اهتم الخط بصفة خاصة بالتأكيد على مبدأ المساواة القانونية والمدنية بين جميع رعايا الدولة وحقهم في خدمتها، وانتظم المسيحيون في الجندية مثلهم مثل المسلمين، ونجمل فيما يلي أهم النقاط التي وردت في خط همايون:

1- إقرار امتيازات الطوائف غير المسلمة، بعد إعادة النظر في تنظيماتها من قبل الطوائف على أن تتقدم كل طائفة إلى الباب العالي بمقترحات الإصلاح، التي تتفق مع ما طرأ على الدولة العثمانية من تقدم ورقي.

2- السماح للطوائف غير الإسلامية بالحرية في ممارسة شعائرها الدينية، وبناء معابدها بشروط يتوافر فيها التسامح.

3- إعلان المساواة في المعاملة بين جميع الطوائف، ومنع استعمال الألفاظ التي تحط من قيمة غير المسلم، وتأمين الحرية الدينية لأهل كل مذهب.

4- إفساح المجال أمام كافة رعايا السلطان للمساهمة في خدمة الدولة عن طريق تعيينهم في الوظائف واستفادتهم من خدمات الدولة التعليمية.

5- نص الخط على إنشاء محاكم مختلطة للفصل في القضايا المدنية، والجنائية، أما الدعاوى الخاصة بالأحوال الشخصية والإرث، فتحال إلى المحاكم الشرعية بالنسبة للمسلمين، وإلى المحاكم الطائفية بالنسبة لغير المسلمين، كما وعد السلطان بإصدار قانون جزاء الهمايوني في وقت قريب.

6- المساواة بين جميع رعايا الدولة في الحقوق والواجبات، ولاسيما في مجال الخدمة العسكرية

7- وعد السلطان السماح للأجانب بالتملك في الدولة العثمانية.

8- منع الالتزام الضرائب من قبل موظفي الدولة.

9- تنظيم ميزانية الدولة بتسجيل الوارد والصادر.

10- وعد السلطان إشراك رؤساء الطوائف في مناقشات المجلس العالي المتعلقة بشؤونهم.

11- وعد السلطان بإجراء الإصلاحات الشاملة في مجالات المالية والمواصلات والمعارف والزراعة والتجارة.[1]

بعد هذه الأحداث التي أصبح التقارب بين بريطانيا وفرنسا والدول الغربية من جهة، والدولة العثمانية من جهة ثانية، فقد ازداد توجه الدول الغربية صوب القدس وافتتحت فيها العديد من السفارات الغربية، واستثمر الغرب هذا التقارب من اجل الدخول إلى هذه المنطقة، فرفعت الأعلام البريطانية والفرنسية والنمساوية والروسية والأسبانية والأمريكية وغيرها على السفارات في بيت المقدس.

(1) سبق ذكره، ص 278.

جرت في القدس أحداث جسام خلال هذه الفترة، فقد انحبست الأمطار، وضاقت أحوال الناس ذرعاً، كما انتشرت الأمراض وعم الغلاء والوباء وقلّت سيطرة الدولة على الناس بسبب الفوضى العارمة، وعدم السيطرة على الأحوال، لكن الوضع تحسن إبان عودة الحياة إلى ما كانت عليه، حيث أنقذت البلاد بهطول الأمطار، وتحسنت الأحوال الاقتصادية، ففي هذا العام الذي أغيث فيه المقدسيون، وانفرجوا مما كانوا فيه من ضيق وضنك وسوء حال، فتح الله عليهم أبواب السماء مدراراً فتوسعوا في البنيان، وخرج قسم منهم في هذا العام 1858 م وبنوا الأبنية الحديثة خارج أسوار القدس.

إذا نظرنا إلى هذه الفترة من الحكم العثماني، فإننا نلاحظ تغلغل الغرب في هذه الديار، وعلى الأخص بيت المقدس، والتركيز عليها بشكل خاص، ليكون لكل دولة غربية موضع قدم وسفارة تمثل بلادها في هذه المدينة الخالدة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد أعطيت فرصة كبيرة لأبناء الديانات الأخرى، بأن ينبشوا أظفارهم في هذه الديار، ويكون لهم موضع قدم في بيت المقدس، تحت الحماية أو الرعاية التي كانت تشرف عليها سفارات تلك الدول الطامعة، ولا يخفى علينا في هذه الحقبة من أطماع اليهود في بلادنا بعامة، وفي بيت المقدس بخاصة، مما أتاح لهم التوجه بتفكيرهم والعمل مع دول الغرب الاستعمارية، الطامعة في وطن لهم في فلسطين وبيت المقدس.

القدس ونصيبها من الخط الهمايوني في هذه الفترة

القدس جزءٌ لا يتجزأُ من البلاد التي كانت تابعة للنظام العثماني، وقد أولاها العثمانيون عناية خاصة، فاقت غيرها من المدن التي كانت تابعة لها لأسباب منها.

1- أن هذه الدولة كانت دولة إسلامية سنية، ومن مبادئها الحفاظ على منابع الإسلام، كمكة والمدينة وبيت المقدس، لما لهذه المدن وما فيهما من قداسة وطهارة، وأماكن إسلامية تهم كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها، وجوهرتها المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة.

2- للقدس خاصية مميزة عن غيرها من المدن الإسلامية، ذلك لأن هذه المدينة مركز الصراع العقدي بين أبناء الديانات الثلاث، ولهذا فقد أولت الحكومة التركية القدس رعاية خاصة فأتبعتها في العديد من عهود حكمها إلى الآستانة مباشرة.

3- أدركت الحكومة العثمانية، ما للدول الغربية والشرقية من أطماع في بيت المقدس، كالصراع على الأماكن المسيحية بين فرنسا وبريطانيا من جهة وروسيا من جهة أخرى، وادعاء هذه الدول بأنها الحامية للطوائف اللاتينية أو الأرثوذكسية.

4- الجذور العميقة التي تربط أهل فلسطين بعامة، وأهل القدس بخاصة في مدينتهم، وأن القدس هي البوصلة التي تحرك العالمين العربي والإسلامي، كما وضح ذلك في المقاومة الشرسة التي قادها أهل فلسطين وبيت المقدس ضد إبراهيم باشا، وما قدمه أهل هذه المدينة من تضحيات في سبيل صده عن مدينتهم الخالدة.

لقد كانت القدس الخالدة على رأس أوليات المدن التي حظيت بالتنظيمات الإدارية، ودخلت إليها التشريعات السلطانية، وطبقها أهل هذه المدينة في نواحي حياتهم المختلفة، ومن ضمن هذه الإجراءات التي نفذت في القدس الشريف ما يلي:

أولا: التقسيم الإداري –

في عام 1864 م أصدرت الحكومة التركية، نظام الولايات الذي كفل للحكومة المركزية الهيمنة على جميع شؤون الإدارة في الولاية.

ولما عاد العثمانيون إلى بلاد الشام 1256هـ - 1840م أصبحت التقسيمات الإدارية في فلسطين، تضم لواء القدس الذي يتبع ولاية صيدا ولوائي نابلس وعكا اللذين يتبعان ولاية دمشق وفي الفترة الواقعة بين عامي 1841م – 1844م ضمت ألوية القدس ونابلس وجنين وغزه إلى ولاية صيدا. ونتيجة لمنازعات الدول الأوروبية حول

الأماكن المسيحية المقدسة التي أدت إلى نشوب حرب القرم 1854م – 1856م قررت الدولة العثمانية رفع لواء القدس إلى مرتبة ولاية عام 1856م. وفي الفترة الواقعة بين عامي 1864م – 1872م كانت ولاية دمشق تضم ألوية القدس ونابلس وعكا وبذلك نزلت القدس إلى مرتبة تابعة إلى ولاية دمشق بعد أن كانت تتبع الباب العالي رأسا.[1]

ثانيا: التعليم – في عام 1857 م أنشئت وزارة التربية والتعليم في الإمبراطورية العثمانية باسم (معارف عمومية نظاراتي) وكانت مراحل التعليم ثلاثة وهي:

المرحلة الابتدائية - المرحلة الرشيدية - المرحلة الإعدادية.[2]

وقد زاد في نفوذ أعيان البلاد بشكل عام، والقدس بشكل خاص، أن حصل أبناء هذه الطبقة على التعليم الحديث نسبيا في المدارس الجديدة في الدولة العثمانية، ولهذا كان أبناء هذه الطبقة هم المرشحون لتبوء المراكز الحساسة، والمتقدمة على الصعيد المحلي، وفي المحافل السلطانية لأنها الطبقة المتعلمة التي أتيحت لها فرصة التعلم.

ثالثا: الأراضي.

فقد تم مسح وتسجيل الأراضي في متصرفية القدس، فواكب تطبيق تعليمات الأراضي في متصرفية القدس عدة تطورات، من أبرزها عمليات المسح والتسجيل، فقد أكدت التنظيمات وفي مقدمتها قانون الأراضي 1274هـ - 1858م على وجوب حصول المتصرف بالأراضي الأميرية على سند طابو – قوجان – موشح بالطغرة السلطانية، يكفل حقوق الخزينة القابضة على رقبة الأرض من جهة، والمتصرف بالأرض أو المستأجر بها من جهة أخرى. كما بينت أنظمة الطابو اللاحقة على صدوره ترتيب الحصول على السند، وفي سبيل التعرف على مدى فعاليتها كواقع عملي على أراضي المتصرفية لا بد من التوقف عند النقاط التالية:

---

(1) محمود طلب ألنموره، المصدر نفسه، م ص 76.

(2) الحولي، عليان عبد الله، **يوم القدس**، الندوة الرابعة، نابلس: جامعة النجاح الوطنية، سنة 1998م ص70.

3- ألحت سجلات المحاكم الشرعية عام 1266هـ 1849م إلى وجود موظف خاص، يعني بشؤون الأراضي يعرف (بمأمور الأملاك والعقارات) كما أشارت إلى وجود سندات طابو قديمة بيد السكان بمن فيهم الزعامات الإقطاعية المحلية، غير أننا لم نعثر على أي إشارة دالة على وجود دائرة للطابو واضحة المعالم قبل الشروع في عمليات المسح والتسجيل عام 1285هـ 1868م وبحلول عام 1317هـ 1899م وعلى إثر تشكيل قضاء بئر السبع في المتصرفية، كان هناك إلى جانب مديرية الدفتر الخاقاني – الدائرة المركزية في مدينة القدس، أربع دوائر أخرى فتحت أبوابها في سراي الحكومة في كل من غزة ويافا والخليل وبئر السبع.

4- المساحة – نص البند الأول من لائحة تعليمات بحق سندات الطابو الصادر عام 1276هـ 1859م، على أنه لا يمكن لأحد أن يتصرف بأراضي أميرية، بغير سند على أي صورة كانت من الصور، وعليه فإن من لا يوجد بيدهم سندات عليهم أن يأخذوا سندات، والذين بيدهم سندات عتيقة، ما عدا سندات الطابو المتوجة بالطغراء يبدلوا سنداتهم أيضا ... هذا ما طبق على أرض الواقع الأراضي الدولة العثمانية، وكان من ضمن هذه الإجراءات ما حدث في مدينة القدس.

5- تسجيل الأراضي – تزامنت عمليات التسجيل ومنح سندات الطابو مع انطلاقة عجلة المسح الميداني عام 1285هـ 1868م. ففي عام 1266هـ 1849م –على سبيل المثال – لم يتوان الصدر الأعظم عن تصدير أوامره إلى متصرف – والي – القدس الشريف أدهم باشا لتشديد الرقابة على تسجيل العقارات للحيلولة دون تملك الأراضي للأجانب. [1]

---

(1) أبو بكر، ألدكتور أمين، **يوم القدس**، نابلس: جامعة القدس الوطنية،يوم القدس، الندوة الثانية أيار سنة 1996 ص 60.

6- ومما هو جدير بالذكر بأنه قد زاد في نفوذ أعيان المدن، بشكل عام والقدس بشكل خاص نجاحهم، في تسجيل بعض أراضي الدولة، وأراضي الأوقاف بأسمائهم.

رابعا: الناحية الاجتماعية –

سبقت هذه الفترة من الحكم فترة نفوذ الحكام المحليين ورجال العشائر فسيطرت على أحوال الناس، وكانت هيمنة الحكومة المركزية عليهم ضعيفة، مما تسبب في حدوث العديد من النزاعات والصراعات والحروب الداخلية المحلية، الذي أضعف من هيبة الحكومة المركزية، فكان الصراع في فلسطين بين القيسية واليمنية من جانب، وبين أبناء الجبل والسهل من جانب آخر وبين القرى والمدن أو بين البادية وأهل القرى ...

النشاط العمراني في القدس في هذه الفترة

"حتى أواسط القرن التاسع عشر كانت القدس ما تزال ضمن حدود الأسوار، وكانت البيوت نصف مهدمة خالية من السكان، وقطع أراضي مفتلحة وأكوام من القمامة داخل المدينة، وشهدت المدينة زمن الحكم المصري بعض النشاطات العمرانية.

بدأ الازدهار الحقيقي في البناء بعد حرب القرم سنة(1853م-1856م) خلال عقد واحد من السنين، تم تنفيذ أربعة وعشرين مشروع بناء داخل الأسوار وخارجها، (من بينها) المجمع الروسي الضخم ألذي أقيم في منطقة الميدان الكائنة شمال غرب المدينة. إن بناء الكنائس الجديدة والأديرة والكنس والمساجد والمدارس والمستشفيات ودور الأيتام والنزل (الهوسبيسات) والفنادق والقنصليات... الخ، استمر دون انقطاع حتى الحرب العالمية الأولى، بل إن الكنيسة البروتستانتية الألمانية المعروفة باسم كنيسة المخلص، تم تكريسها بحضور الإمبراطور الألماني سنة 1898م. وفي نهاية القرن التاسع عشر أحصى (كينية) Cuinet ووصف مثلا: 42 ديراً مسيحياً و 28 نزلاً(هوسبيس) و 17 مستشفى و54 مدرسة باستثناء المدارس الدينية الإسلامية.

وما إن تم تعبيد طريق بين يافا والقدس، الأمر الذي تسنى معه نقل مواد البناء المستوردة بالعربات دون صعوبة، حتى أدخلت أساليب عمرانية جديدة في الأحياء السكنية خارج البلدة القديمة. ابتداء من سنة 1880م فصاعداً، وقد أصبحت جدران المباني الجديدة أقل سمكاً وصارت الغرف تغطى أرضيتها بألواح خشبية، وتسقف بأعمدة خشبية، ثم بأعمدة حديدية وبلاط حجري، وصارت هياكل الأسطح تلبس بالقرميد، وهكذا نشأت مدنية جديدة أوروبية الطراز جنبا على جنب مع القدس التاريخية.[1] ومن الأعمال العمرانية التي تمت في عهده ترميم المسجد العمري الواقع قبلي كنيسة القيامة.

المطلب الرابع :القدس في عهد السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثاني

1861 م - 1876م

واصل هذا السلطان في توجهاته الإصلاحية صوب هذه البلاد – بيت المقدس – تحديداً وقام بإجراء الإصلاحات اللازمة، وأوصل القدس بالمدن المجاورة ومدها بشبكة من الطرق والمواصلات التي كانت متوفرة في عصره، وكان مما تم إنجازه في عصره في بمدينة بيت المقدس ما يلي:

أولا: في عام 1867 م تم إنشاء الطريق الموصل بين القدس ويافا.

ثانيا: في عام 1870 م تم إنشاء الطريق الموصل بين القدس ونابلس.

ثالثا: إدخال نظام الزي الجديد، ألا وهو لبس الطربوش الذي نقله الأتراك عن اليونان ولبسه أهل القدس كبقية أبناء الوطن التركي عامة، فكان عدد سكان القدس في هذه الفترة 68ألفا.

---

(1) شولش، اسكندر، **القدس في القرن التاسع عشر** (كامل العسلي، لقدس في التاريخ) عمان: عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، 1992 م ص 283.

الفصل الرابع

بلدية القدس

بلدية القدس في عهد السلطان عبد العزيز

تذكر المصادر أن بلدية القدس تأسست عام 1857 م بأمر من السلطان آنذاك، إلاّ المصادر المرجحة تفيد بأن بلدية القدس تأسست بين عامي 1863 م -1864 م، ويستدل كتاب حاكم القدس العثماني إلى قنصل بروسيا في القدس أنها باشرت أعمالها بالفعل في عام 1867 م أي في عهد السلطان عبد العزيز.

كان إنشاء بلدية المجلس البلدي في القدس موضوع مراسلات بين السلطات العثمانية والقناصل الأجانب في القدس، الذين عارضوا فكرة إنشاء البلدية وأبدوا مخاوفهم من ذلك، بحيث أن هذا الإجراء سوف يعتدي على صلاحياتهم، وطالبوا بإشراك الرعايا الأجانب المقيمين في القدس في المجلس البلدي بحجة أنهم يدفعون ضرائب بلدية.

يستدل من ملفات بروسيا في القدس، أن بلدية القدس باشرت أعمالها بالرغم من احتجاجات القناصل، وأن قراراتها كانت تنقل إلى تلك القنصلية وربما إلى قنصليات أخرى باللغتين العربية والتركية، ومن الجدير بالذكر أنه لم تصل أية مدينة في فلسطين إلى صنف المدن الكبيرة عند صدور القانون عام 1877 م وبذلك لم يتأسس في أي مدينة أكثر من دائرة بلدية واحدة، ومدينة القدس هي المدينة الوحيدة في فلسطين التي زاد عدد سكانها على عشرة آلاف نسمه في بداية القرن الثامن عشر.

... تدل الدراسات المتوفرة على أن العائلات المتنفذة قد سيطرت على بلدية القدس، وتنافست على عضوية ورئاسة المجلس البلدي الذي تعاقب على رئاسته منذ عام 1863م – 1917م 23 رئيسا وقد ترأسه سليم أفندي الحسيني لمدة ثمانية عشر عاماً،

وخلفه ولداه في رئاسته وكان رؤساء بلدية القدس حتى عام 1914م من عائلات الحسيني والخالدي والعلمي والدجاني[1].

كانت هذه الفترة من العهد العثماني فترة يجب لفت النظر إليها وما أفرزته من نتائج على وضع القدس بشكل خاص، ولا بد لنا من تثبيت ما قاله(ألكسندر شولش) عن هذه الفترة حيث أورد قائلا:

"إن كان ثمة مفترق طرق في تاريخ القدس في القرن التاسع عشر، فينبغي أن نراه في والاجتماعي والاقتصادي والسياسي الإداري الحاسم الذي شهدته فلسطين كلها خلال تلك العقود تحت تأثير سياسة الإصلاح العثمانية والتغلغل الأوروبي، بيد أننا لو نظرنا إلى الوراء في ضوء التغييرات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، لظهر لنا أن سنة 1882 م كانت أيضا نقطة تحول. إن الاحتلال البريطاني لمصر وبداية موجة الهجرات اليهودية الأولى وكلاهما حدث سنة 1882م كانا نقطتي البدء لخطين من التطور، الاستعمار البريطاني من جهة، والصهيونية من جهة أخرى، تحرك كل منهما في باتجاه الآخر والتقيا أخيرا خلال الحرب. وكانت النتيجتان صدور وعد بلفور (2 تشرين الثاني 1917م ودخول أللنبي إلى القدس كانون الثاني 1917م)[2] وما أفرزته تلك الأحداث وما خلفته من عواقب وخيمة على المنطقة بأسرها وضعت أساساتها من تلك اللحظة المظلمة في تاريخ هذه الأمة وكانت النتيجة ما نحيا وما نراه حتى يومنا هذا والقادم ربما يكون أعظم!؟.

---

(1) محمود طلب النموره، سبق ذكره،ص 124.

(2) الكسندر شولش، **القدس في القرن التاسع عشر**، من (كامل العسلي، القدس في التاريخ) عمان: منشورات عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية) 1992م ص 295.

صلاحيات بلدية القدس

أعطي المجلس البلدي في مدينة القدس صلاحيات واسعة في حياة الناس اليومية وكان من وظائفه ما يلي:

7. فرض النظام أو القانون على المواطنين: فقد تولت بلدية القدس الحفاظ على النظام والقانون وفي عام 1886م عينت مجلسا مؤلفا من أربعة عشر رجل شرطة، كان من ضمن واجبا تهم القيام بجولات في شوارع القدس، وساحاتها المفتوحة للسهر على رفاهية السكان والإشراف على النظام العام ونظافة المدينة، وكان رجال الشرطة يمنعون إطلاق النار في الليل ويمنعون المرور في الليل في شوارع المدينة لا لمن كان يحمل قنديلا مضاء.
8. الإشراف التام على التعداد السكاني وتسجيل السكان المواليد والوفيات والأجانب الذين كانوا يفدون إلى المدينة أو يعيشون تحت رعاية القنصليات الأجنبية.
9. تنظيم حركة السير والمرور وتسهيل وسائل المواصلات وتنظيم رسوم الأحمال على الدواب.
10. الإشراف على المؤسسات الاجتماعية الخاصة بنزل المعوزين والفقراء والمكفوفين وغيرهم.
11. كانت البلدية تشرف على الطرق والأبنية العامة كالمستشفيات والمدارس والمساجد وغيرها.
12. الإشراف على الناحية الصحية داخل حدود البلدية كالنظافة ومعالجة المرضى فقد عينت بلدية القدس طبيبا يعالج المرضى من أتباع جميع الديانات مجانا. ثلاث مرات في الأسبوع.[1]

---

(1) المصدر نفسه ص 129.

مشاركة أهل القدس في الإدارة العثمانية

يستدل من الدراسات والنتائج المترتبة عليها على أن أبناء بيت المقدس، قد شاركوا في العديد من الوظائف البارزة في الحكم التركي، فكان أبناء العديد من العائلات التي كانت تتولى رئاسة بلدية القدس أمثال عائلة الحسيني والخالدي وغيرهم، كان لهم نصيب في استلام المراكز المختلفة في العهد التركي، حيث أن الحكومة التركية كانت تنظر إلى رعاياها على أنهم أبناء ملّة واحدة، فلم يحرموا من تسلم وظائف هامة في الدولة، كما أن هؤلاء الرعايا كان لديهم الشعور بأن الدولة التركية هي دولتهم الإسلامية السنية.

كان من أبرز الشخصيات المقدسية التي يلقى عليها الضوء في هذه الفترة المصلح يوسف الخالدي حيث شعر هذا المصلح في الفترة التي تفتحت فيها عيناه على ما يحيق ببلده القدس من أطماع وما يحاك للخلافة الإسلامية من مؤامرات أجنية، فحاول قد المستطاع أن يقف أمام ريح التغيير القادمة على المنطقة وعمل ما بوسعه لتنبيه الناس إلى الأخطار المحدقة بقضيته، وأخذ ينشر أفكاره عله يجد من يسمعه حيث أنه سافر إلى خارج البلاد ونهل من معين العلم الحديث، وانتخب رئيسا لبلدية القدس وعضوا في مجلس المبعوثان العثماني. تصدى يوسف الخالدي إلى الدفاع عن الدستور بحرارة ضد الإجراءات التعسفية للسلطان وأصبح يعرف بفضل شجاعته أحد أقطاب المعارضة.

القدس في عهد السلطان عبد الحميد الثاني 1293هـ - 1326هـ/1876م—1909م.

بواكير التغلغل اليهودي في القدس لم يترك اليهود فرصة إلاّ اغتنموها من أجل تثبيت تواجد لهم في القدس، فجرت محاولات يائسة من قبل زعماء الحركات الصهيونية منذ أمد بعيد، وحاولوا بجميع الأساليب الوصول إلى القدس، " فكان منتفيوري على رأس أولئك اليهود الذين حاولوا الاستيطان في القدس بالذات وعرف فيما بعد باسم حي " يمين موشي، حيث قام يهود القدس حتى سنة 1892م بإنشاء ثمانية أحياء سكن

أخرى في الناحية نفسها من المدينة أقيم جزء منها بمساعدة صندوق مالي(مـزكيرت موشـي – ذكرى موسى) الذي أسس تخليداً لذكرى منتفيوري وترأسه ميخل بينس."[1]

وكان من أولى الخطوات الهامـة الـتي اتخـذها في هـذا الـسبيل، هـي ربـط سـنجق القدس مباشرة بالباب العالي حتى يشرف بنفـسه علـى منـع تغلغـل النفـوذ الاسـتعماري والصهيوني في فلسطين إن الاستيطان – هو الذي" دفع السلطان عبد الحميـد عـام 1887م إلى جعل القدس سنجقا مستقلا عن ولايـة دمـشق ومتـصرفية لهـا اتـصال مباشـر بالبـاب العالي".

على إثر المذابح التي ارتكبتهـا روسـيا القيـصرية ضـد اليهـود، توجـه قـسم مـنهم صوب فلسطين، وعندما أحس السلطان أن سيل الهجرة قد بدأ يتدفق إلى فلسطين أرسـل في 29 حزيـران 1882م رسـالة إلى متـصرف القـدس يطلـب فيهـا أن يمنـع اليهـود الـذين يحملون الجنسيات الروسية والرومانية والبلغارية من الدخول إلى القدس."[2]

السلطان عبد الحميد يقف شخصيا أمام الزحف اليهودي

لاحظ السلطان عبد الحميد مدى التغلغل اليهودي في القنـصليات الأجنبيـة فاتخـذ الإجراءات التالية

1. قام بإصدار التشريعات وسن القوانين التي تمنع الهجرة اليهودية إلى فلـسطين وأنه لا يسمح لهم بالدخول إليها أو الإقامة فيها إلا كزوار أو حجـاج وحـدد مدة الزيارة بثلاثة أشهر.
2. عيّن متصرفاً[3] مستقيماً وحازماً على القـدس يطبـق سياسـة البـاب العـالي ويقف حائلا أمامهم.

---

(1) مصدر سبق ذكره ص 97.

(2) المصدر السابق – ص 165.

(3) كان اسم هذا المتصرف رؤوف باشا 1876م –1888م.

3. في عام 1887 م وجه أمرا إلى متصرف القدس ويافا بأنه لا يسمح لليهود بالدخول إلى فلسطين إلا حجاجاً أو زواراً على أن يدفع الواحد 50ليره تركية لقاء تعهده بمغادرة البلاد خلال 31 يوما.

4. عمد السلطان عبد الحميد إلى إبلاغ قناصل الدول التي ترعى مصالح اليهود، بأنه منزعج من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ومكوث اليهود فيها بعد انتهاء مدة التصريح الممنوح لهم.

5. في عام 1882م أصدر السلطان قانونا يمنع فيه اليهود الزائرين فلسطين تصريحا للزيارة لأكثر من ثلاثة أشهر، على أن يصدر التصريح من السفارة العثمانية في البلاد التي يأتي منها اليهود.

6. نتيجة للضغط على الحكومة التركية وتهريب أعداد كبيرة إلى فلسطين عن طريق القنصليات فقد أوفد السلطان عبد الحميد شخصية صارمة متصرفا على القدس وهو "توفيق باشا" مما تسبب في ثني اليهود عن الاقتراب خلال هذه الفترة إلى نواحي القدس وتوجهوا صوب الشمال.

7. في عام 1898 م أصدر السلطان قانوناً جديداً يمنع فيه اليهود من التوجه إلى القدس.

8. في عام 1891 تجاوب الباب العالي مع مطالب وجهاء القدس بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين وشرائهم الأراضي.

9. في عام 1901م وعلى إثر ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين عن طريق القنصليات الأجنبية ، أصدر أمرا بمنع اليهود من دخول فلسطين، إلا إذ تعهد خلال ثلاثة أشهر بالمغادرة عنها.

الوضع الإداري في القدس في عهد السلطان عبد الحميد :

كان الوضع صعبا خلال هذه الفترة خارجيا وداخليا بحيث كانت هذه المرحلة تعج بالمشاكل التالية:

نظام العشائر:وفي جبل القدس كانت الخلافات بين القيسيين واليمنيين أشد ما كانت عليه في جبل نابلس، وشملت تلك الخلافات أنحاء جبل القدس، وكان من زعماء القيسيين في جبل القدس آل سمحان (بنو حارث) والبراغثة (بنو زيد) وآل اللحام في العرقوب. كما كان من زعماء اليمنيين آل أبي غوش (بنو مالك) الذين شمل نفوذهم بيت لحم وجزءا من بني حسن ورام الله والبيرة.

بلدية القدس ومهامها

وقد خضع نظام البلديات إلى قوانين وأنظمة حددها القانون من عدد أعضاء المجلس البلدي ومؤهلاتهم والصفات الواجب توفرها في رئيس المجلس البلدي ومؤهلاته وكيفية الانتخابات وطريقة الانتخاب أو التعيين حيث تعلل الباحثة(روث كارك) Ruth Kark فتذكر بأن بعض رؤساء البلديات كانوا يعينون من قبل الوالي التركي والبعض الآخر كانوا ينتخبون من أبناء الشعب، وتذكر أنه من بين الستة عشر رئيسا لبلدية القدس خلال المدة بين عام 1863م –1963م كان سبعة منهم قد عينوا من قبل الحكومة التركية والآخرون تم انتخابهم.

تدل الدراسات أن العائلات المتنفذة قد سيطرت على بلدية القدس وتنافست على عضوية ورئاسة المجلس البلدي الذي تعاقب على رئاسته منذ تأسيسه منذ عام 1863م – لغاية عام 1917م ثلاثة وعشرون رئيساً، وقد ترأسه سليم أفندي الحسيني لمدة ثمانية عشر عاما، ثم خلفه ولداه في رئاسته وكانوا رؤساء بلدية القدس حتى عام 1914م من عائلات الحسيني والخالدي والعلمي والدجاني، وكان تعيين رئيس البلدية وتركيب المجلس البلدي يعكس التوازن الداخلي بين تلك العائلات ومن بين ستة عشر رئيسا

تعاقبوا على بلدية القدس بين عام 1877م – 1914م كان ستة من آل الحسيني وأربعة من آل العلمي، واثنان من آل الداودي واثنان من آل الخالدي. وقد مثّل المرحوم يوسف ضيا باشا االخالدي القدس في المبعوثين الذي أنشأه السلطان عبد الحميد الثاني.

وفي كتاب قدس الأمس يصف د: يلين D. Yellin الاتفاقات والتحالفات التي كانت تتم بين عائلات وطوائف القدس من أجل اقتسام مقاعد المجلس البلدي. وكيف كان يتم تقاسم تلك المقاعد بين العائلات مرة كل سنتين. كما يصف كيف اهتمام أهل القدس بالبلدية كمؤسسة عامة في ذلك الوقت الذي اتصف بالتأخر والنزاع بين عائلات القدس على رئاسة المجلس البلدي وترقبها لنتائج تعيين رئيس البلدية بعد انتهاء الانتخابات البلدية عام 1898م.[1]

كان من مهام بلدية القدس خلال هذه الفترة تقييد جميع أنواع أملاك البلدية في سجل خاص ويقيد في سجل آخر عدد النفوس والمواليد والوفيات. كما كان من مهام أعمال أمين صندوق البلدية تقييد الواردات والمصروفات الخاصة بالبلدية.

كان من مهام بلدية القدس الحفاظ على القانون والنظام داخل حدود البلدية، فكانت تشرف على ا لأماكن العامة كالمقاهي والفنادق والمسارح والأسواق ومحلات الألعاب، وتم تعيين أربعة عشر شرطيا للحفاظ على الأمن والنظام داخل حدود البلدية وكان من مهام أعمال هؤلاء الرجال منع إطلاق النار ليلا وعدم المرور في الشوارع بدون حمل قنديل لمن يسير ليلا.

كانت بلدية القدس تعتني بالشؤون الاجتماعية والحفاظ على طرق المواصلات والصحة العامة، وقد تم تعيين طبيب لمعالجة المرضى من جميع التبعات مجانا ثلاثة أيام في الأسبوع وقد تم إنشاء مستشفى ضم 30 سريرا وعيادة خارجية. كما كانت بلدية القدس تقوم بتطعيم المواطنين ضد الأمراض وتقضي على الكلاب الضالة وتغلق المدينة أمام الزوار أثناء انتشار الأوبئة لمنع انتشار الأمراض المعدية بين المواطنين. كما كانت تساعد في

---

(1) المصدر نفسه ص 125.

تأثيث المدارس وتوسيع الطرق وتنظيمها ومساعدة الجيش أثناء تواجده أو مروره منها. كما كان من مهام البلدية الإشراف على ألأبنية والإنشاءات وتنظيم حركة السير وتوسيع الطرق وتسوية الأرصفة وهدم الأبنية الآيلة إلى السقوط والمحافظة على النظافة والتخلص من النفايات. أي أن البلدية كانت تقوم بالعديد من الخدمات التي تقوم بها البلديات في وقتنا الحاضر وتؤمنها للسكان مقابل رسوم يدفعها المواطنون لتغطية النفقات.

كان لبلدية القدس نظام مالي من واردات ومصروفا ت وهي على النحو التالي:

تتألف واردات بلدية القدس من المواد التالية:

1- الرسوم التي خصصتها الدولة.

2- الضرائب المختلفة

3- الغرامات.

4- رسوم القيان والميزان والمكاييل والعقود والذبحية ورسوم بيع أو شراء المواشي.

5- الإعانات.

كانت بلدية القدس – قبل نشوب الحرب العالمية الأولى تجمع عشرة أصناف من الضرائب بالجنيهات التركية ويبين الجدول التالي معدل الدخل السنوي لبلدية القدس من الضرائب قبل عام 1914م بالجنيهات التركية[1]

---

(1) = = ص 132.

الرقم	الضريبة	معدل الدخل السنوي	
		من	إلى
.1	ضريبة طريق يافا القدس	1375	1500
.2	ضريبة القنطار	2300	2500
.3	ضريبة يومية على العربات	700	750
.4	ضريبة الجلود المصدرة	500	
.5	ضريبة الذبحية	800	900
.6	ضريبة العقارات	300	400
.7	ضريبة المحروقات	1000	1200
.8	ضريبة عبور نهر الأردن	1650	1700
.9	ضريبة تحسين الطرق	400	450
.10	ضريبة رش الطرق بالماء	80	

يعلل ألكسندر شولش في كتابه" تحولات جذرية في فلسطين" عن وضع القدس في هذه المرحلة بقوله " لم يكن للقدس في هذه العقود التي ندرسها بالنسبة للاقتصاد الفلسطيني أهمية كبيرة لا كموقع تجاري ولا كمركز للإنتاج الحرفي، فقد كانت المدينة تعيش في المقام الأول من أجل الأماكن المقدسة، للمسلمين والمسيحيين واليهود، ومن المؤسسات التي قامت أو أنشئت بسبب هذه الأماكن أو من الحجاج أو الزوار الذين كانوا يقصدونه، ومنذ السبعينات في القرن التاسع عشر بدأت المؤسسات السياحية تهتم بالمسافرين الذي لا يرغبون وحدهم بالسفر إلى فلسطين ولا يرغبون أيضا في الانضمام

إلى قطاعات جيش -الحملة الصليبية السلمية – فكان الحجاج ينزلون في الأديرة "الهوسبيسات".[1]

لقد استفاد أهالي القدس والمدن المجاورة من حركة تدفق الأموال على القدس من الدول الغربية خلال هذه الفترة وزادت حركة البناء والعمار، وأن المتتبع لجداول مهن البناء في القدس يلاحظ التوسع المضطرد في الدخول للحرفيين والتجار، وكانت نسبة الحرفيين والتجار غالباً ما تكون في أيدي المسلمين حيث أنهم العدد الأكثر في فلسطين وبيدهم الميزان التجاري والحرف والصناعات الكثيرة، ومما زاد التوسع العمراني في القدس في هذه الفترة البناء خارج السور بحيث أصبح البناء الحديث طابعاً جديداً مميزاً لهذه المدينة الخالدة.

ومما زاد في تدفق الأموال على القدس ارتباطها بميناء يافا البحري الذي كان ثغر فلسطين الجنوبي، علاوة على إنشاء خط سكة الحديد الذي يوصل إلى القدس الذي كان تشغيله في عام 1892م.

الأعمال التي تم إنجازها في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في القدس

1- في عام 1901 م تم إيصال المياه إلى القدس من مياه أرطاس.

2- في عام 1907 تم إنشاء السبيل الواقعة بجانب السور بباب الخليل حيث أقيم هذا السبيل في عهد المتصرف أكرم بك.

3- تجديد سبيل قايتباي الواقعة بين الصخرة المشرفة وباب القطانين.

4- بناء المدرسة الرشيدية المقابلة لباب الساهرة خارج السور، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى رشيد بك متصرف القدس زمن السلطان عبد الحميد سنة 1906 م.

---

(1) شولش، الكسندر، **تحولات جذرية في فلسطين**، عمان: دارا لهدى، الجامعة الأردنية، نقله عن الألمانية الدكتور كامل العسلي سنة 1990 ط1 . ص 145.

5- أنشئت السكة الحديدية بين يافا والقدس سنة 1892 م.

6- تم إنشاء المستشفى البلدي الكائن غربي المدينة عند الشيخ بدر سنة 1891 م.

7- تم إنشاء برج على السور فوق باب الخليل سنة 1909م.

8- أنشأ سبيلا على الباب المذكور سنة 1907 م.

انحسار العهد التركي

اصبت الدولة العثمانيةتعرف في نهاية أيامها بالرجل المريض الذي شارف على الموت وكان مشيعوه يترقبون ساعة وفاته كي ينقضوا على أملاكهبين الدول الغربية على القدس فتأسس العديد من القنصليات الأجنبية غير التي كانت قائمة سابقا. ، فاستغل هؤلاء اليهود الفرصة وانضموا إلى جمعية الإتحاد والترقي التي أطاحت بالسلطان عبد الحميد عام 1908م واعتلى العرش بعده أخوه السلطان محمد رشاد.

القدس في عهد السلطان محمد رشاد الخامس14 نيسان 1325هـ - 1908 م

كان من أهم ما قام به في القدس خلال فترة حكمه التي شهدت الأحداث الجسام ما يلي.

استقبال الراية النبوية في بيت المقدس

دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى في عهد السلطان محمد رشاد الخامس ولتأجيج الحماس الديني لدى المسلمين، فقد جرى نقل الراية النبوية من المدينة المنورة إلى بيت المقدس، وقد جرى احتفال مهيب بهذه المناسبة حضرة أعداد كبيرة من المسلمين، وقد تم نقلها بواسطة القطار إلى دمشق وجرى لها احتفال مهيب يليق بقدسيتها حيث كان في استقبالها جمال باشا وهيئة أركان حربه.

نقلت الراية من دمشق إلى القدس حيث توقفت في نابلس لتأدية صلاة الجمعة ودخلت القدس بتاريخ 20 كانون أول 1914م وأقيم احتفال كبير في ساحة قبة الصخرة المشرفة وختم الاحتفال بإقامة الصلاة في المسجد الأقصى المبارك، ليتم نقلها إلى ساحة

المعركة في السويس، بيد أن الغاية التي أحضرت من أجلها الراية النبوية لم تتحقق وكانت النتيجة ما جرى !.[1]

العهد العثماني في أيامه الأخيرة في بيت المقدس أيار1917- 1917/12/9 م

1) في أوائل أيار من العام 1917م سافر قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في القدس إلى بلاده، بمناسبة دخول بلاده الحرب ضد ألمانيا وحلفائها، فاستولت الدولة العثمانية على عمارات الأمريكان ورقعت عليها العلم العثماني واستخدمتها لمصالحها.

2) في 10 تنشرين الثاني غادر الجنود الألمان القدس، كما غادرها مأمورو الملكية وأعضاء الديوان العرفي ودائرة الرديف والمستشفيات... فانفرط عقد الحكومة ولم يبق في القدس إلا المتصرف والقومندان العام والمفتش وكان لذلك اليوم شأن عظيم.

3) في 15 تشرين الثاني سافر قنصلا دولتي ألمانيا والنمسا من القدس إلى بلادهم.

4) في 18تشرين ثاني أعلن قوماندان القدس أن المدينة دخلت في دور الحصار، وفي 16 منه أبعدت الدولة رؤساء الأديان غير المسلمة إلى دمشق، وفي 20 منه أعلن المتصرف أن الطريق بين نابلس والقدس مغلقة لأن الجيش البريطاني وصل إلى قرية النبي صموئيل.

5) وفي كانون الأول اشتدت المدفعية الإنجليزية على القوة العثمانية المستحكمة في أطراف المدينة وكانت الطائرات الإنجليزية تحوم أسرابا فوقها. [2]

---

(1) مصطفى مراد الدباغ، مصدر سابق ص 157.

(2) سبق ذكره، ص 167.